# الرؤية الرحْلة عند الشيخ محمد الخضر

# حسين الجزائري*

**أ/ أبو بكر مرزوق: جامعة عمار ثليجي**

**الأغواط (الجزائر)**

**تمهيد**

نبّهت حملة "نابليون" على مصر والشام، أواخر القرن الثامن عشر، العالم الإسلامي إلى مدى تطور العالم الأوربي وتقدمه المادي والتنظيمي، لذلك، وبعد بضع سنين، بدأت طموحات الشرق (مصر، زمن محمد علي)، تشرئبّ إلى الاقتداء بهذا الغازي الهادي، الذي جاء من جهة الغرب، وترتّب أسباب النهوض، من خلال الاحتكاك المباشر - وغير المباشر - بالدول الأوروبية، وبعث الإرساليات العلمية ومن هنا كانت أهمية الرحلات العلمية والفكرية في اقتناء التجربة الحضارية الغربية.

"على أنّه من المفيد أن نشير إلى أنّ معظم الرحلات العصرية الأولى إلى الغرب لم تكن بقصد السياحة أو الاطلاع على التجربة الأوروبية، أو التعمّق في دراستها، على غرار

المهام الاستشراقية التي نظّمها الغرب لدراسة الشرق، بل كانت لأغراض مختلفة عن تلك؛ فـ (الطهطاوي)، لم يكن مطلوبا منه أن يكون أكثر من مرشد ديني للبعثة التعليمية المصرية إلى "باريس"، في حين إنّ (الشدياق) ارتحل في بادئ الأمر إلى "مالطة" للعمل على تصحيح الكتب العربية التي كانت تطبع في مطبعة الإرسالية الأمريكية في الجزيرة، أما (خير الدين)، فكان مبعوثا من قبل "الباي" إلى "فرنسا" .. للقيام بمهام سياسية.. وعلى هامش هذه المهام، كتب كلّ منهم انطباعاته[1] عن التجربة الأوروبية، من الموقع الذي جاء منه، وبتأثير من تكوينه الثقافي والديني"[2].

**موضوعة "السفر" عند محمد الخضر حسين:**

إنّ سوق مثل هذه الإشارة الرحْلية ممهّد مناسب لإقرار أنّ موضوعة السفر عند الإمام الشيخ محمد الخضر حسين الجزائري - وهو أنموذج مقاربتنا - لا تسير على هذه المقاصد بالضرورة؛ حيث إنّ أسفاره قد حملت دوافع شتى، منها ما هو ديني (رجلته إلى أرض الحجاز وبيت المقدس)، ومنها ما هو علمي (رحلة التحصيل العلمي إلى مصر)، ومنها وما هو سياحي استكشافي (رحلة الجزائر)، أو ما هو حتمي اضطراري (رحلة الشام)، ومنها ما كان لأجل أداء مهمة سياسية وطنية (رحلة برلين).. ولقد أدرك الشيخ الخضر أهمية رحلات أهل العلم والأدب، وما تأتي به من ثمار طيبة؛ وكيف تكون الرحلة من وسائل ترقية العلوم والآداب، وتهذيب النفوس، وإصلاح حال الاجتماع. ولكي تدرك عميق فهمه للرحلة والراحلين، اقرأ له هذا النص يقول الشيخ الخضر في مقال له بعنوان: أثر الرّحلة في **الحياة العلمية والأدبية:**

".. ولعلّ قائلاً يقول: إن فائدة الرحلة قد عرفها الناس على اختلاف أصنافهم، وتفاوت طبقاتهم، وأصبحت من المعلومات الموضوعة على ظاهر اليد، فالحديث عنها صرف للوقت في غير جدوى. فأقول في الجواب: إني في شك من هذا؛ لأني أرى كثيراً ممن وهبهم الله

القدرة على الرحلة، وهيأ لهم وسائلها، لا يُقبلون عليها، وينصرفون عنها انصرافهم عن الأشياء التي يرونها خالية من كل فائدة ولذة"[3].

لقد أشار الإمام إلى نظرة الإسلام إلى الرحلة، حيث إنّه لم يدَع وسيلة من وسائل الرقيّ إلا نبّه عليها، وندب إلى العمل بها، وهذا شأنه في الرحلة، التي دعا إليها، وقصد إلى أغراضها السامية، منها: طلب العلم، والاعتبار بأحوال الأمم الماضية، والتخلّص من دار البغي والضلال بالتحوّل والإقامة في دار العدل والهداية، كما أشار إلى مثبطات الرحلة، فيراها في: استعظام الرجل مفارقة من يعزّ عليه من قريب أو صديق، أو أن يرى الرجل ما بالرحلة من متاعب بدنية، فيحجم عنها، أو أن يخاف أن ترميَ به بين أقوام لا يعرفون أدبه أو منزلته، عندئذ، يجد من مرافقتهم أو معاشرتهم كدراً.

ولحرص الإمام على علاج هذه المثبطات، كان يحث الرجل على أن يحدّث نفسه دوما بضرورتها، وضرورة الصبر عليها، واحتمال المكاره في سبيلها؛ كما يذكّر النفس بما تأتي به من فوائد علمية أو أدبية، خاصة أو عامة، إذا وثقت نفسه بغايتها النبيلة، وعواقبها الخيّرة، وآمنت بجمّ فضائلها.

فالرحلة تفيد حياة الراحل نفسه: ذلك أنّ أنفس ما يكسبه الرجل في رحلته: أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل، وأنّ يرى في الرحلة عونا على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل: خلق الصبر، وأنّ رحلة العلم أو الأديب قد تكون من أسباب ظهور علمه أو أدبه، وانتشاره في الآفاق، وأنّه بفضلها، يتخذ في البلاد التي رحل إليها أصدقاء يسعد بصداقتهم.

وقد تستفيد بلاد الرجل من رحلته العلمية، حين يرحل إلى الحواضر التي هي منبع العلوم، ثم يعود إلى بلاده، وقد امتلأ مما اغترف من العلوم والفنون.

وقد يستفيد البلد الذي يرحل إليه الراحلون من ثمرات أفكار هؤلاء الوافدين عليه، حين ينزل العالم أو الأديب بها، فيمنحها ما كانت في حاجة إليه من العلم، أو الأدب، ذلك أنّ رحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها. إلى جانب ما للرحلة من تنمية للعلوم، وإثراء للأدب، وتعارف بين الشعوب[4].

إنّ موقف الإمام الخضر من الرحلة والراحلين، والتحفيز الملحاح عليها قد يؤكد أنّ الإمام قد جرّب الرحلة، بل سعى إليه سعيا، ذلك ما نلمسه بوضوح في ما كتب عن أسفاره. فقد قام الشيخ بعدّة رحلات علمية إلى الشرق والغرب.

- الرحلة الأولى: 1889: زار فيها طرابلس الليبية
- الرحلة الثانية: 1903: زار فيها الجزائر.
- الرحلة الثالثة: 1904: عاد لزيارة الجزائر.
- الرحلة الرابعة: 1912، من الشهر السابع إلى الشهر الحادي عشر: زار خلالها مالطة، ومصر، وفلسطين، وسورية، ولبنان، وتركيا.
- الرحلة الخامسة: 1913: زار مصر، والحجاز، والشام، ثم ألبانيا، وبعض بلاد البلقان، واسطنبول، وألمانيا.
- الرحلة السادسة: 1920: ارتحل إلى القاهرة، حيث استقرّ فيها إلى آخر حياته، وفي أثنائها قام برحلات إلى سوريا ولبنان والحجاز
- ثم كان شوقه للعودة إلى تونس مسقط رأسه، ومهد صباه، ومعهد شبابه، فبدأ بترتيب عودته، بعد استقلالها، لكن المنية تدركه بعيدا عن وطنه، وكانت رحلته إلى ربّه في الثالث من فبراير، من عام 1958.

**الرحلة الألمانية: "مشاهدات برلين"[5]:**

تحمل رحلة "برلين" نكهة خاصة، كونها أقرب إلى الرحلة السفارية، أو المأموريات الدولية، التي - عادة - ما ترتبط بقضايا السياسة وأمور الوطن. فقد ذكر الشيخ الخضر، في حديثه إلى صحفي ألماني، زاره في "مشيخة" الأزهر الشريف، أنّ رحلته إلى (ألمانيا) كانت في أيام الحرب العالمية الأولى، لمّا كان يزور الأسري الإفريقيين في السجون الألمانية، وقد زارها ثلاث مرات: الأولى: دامت تسعة أشهر، وخلالها تعلّم الألمانية، والثانية تسعة أشهر أخرى من عام: 1917، التقى خلالها زعماء الحركات الإسلامية، من مثل الشيخ (عبد العزيز الجاويش)، والثالثة: سبعة أشهر، من عام: 1918، للاجتماع بالأسرى المغاربة في المعسكرات الألمانية.

ولقد كانت هذه الرحلة من أغنى تجارب الشيخ[6]، كونها مهمة وطنية جليلة؛ ذلك أنّ فرنسا جنّدت مئات الآلاف من المغاربة: تونسيين، وجزائريين، ومراكشيين، وألقت بهم في الخنادق الأولى من المعارك التي خاضتها ضد ألمانيا، فكان الإمام يقوم بالاتصال اليومي مع الأسرى من جهة الجبهة الألمانية، ويزور خطوط القتال، تحت القصف الدائم للقذائف، يحرض المقاتلين المغاربة، من خلال رسائل وخطب، كانت تسرّب إلى خنادق الفرنسيين، تحثّهم على الثورة، وتدعوهم إلى الانضمام إلى الدولة التركية التي سوف تساعدهم على تحرير بلادهم من الاستعمار.

وكانت السلطات الفرنسية قد أصدرت عليه، من تونس، وكان - وقتئذ - مدرسا في الجامع الأعظم (جامع الزيتونة)، حكما غيابيا بالإعدام، في 15 من شهر جوان، من عام 1917، بتهمة التحريض، والدعوة إلى العصيان، كما أصدرت "أمرًا" بمصادرة أملاكه، وبيعها[7].

كان لتعلّم الشيخ الخضر اللسان الألماني في ظرف قياسيّ، بل إجادته اللغة الألمانية، أثر كبير في الاطلاع على حياة الألمان الاجتماعية والثقافية، والتعرّف إلى علومها وفنونها وآدابها،

ومدارسة علمائها ومفكريها، إلى جانب السياحة قصد مشاهدة عادات الألمان وتقاليدهم وأخلاقهم، وسوف ينتهز فرصة وجوده في (برلين)، ليضطلع بأمر الدعوة إلى الله، التي كان لها النصيب الأوفى من رحلته، حيث سعى حريصا إلى إنشاء مسجد تقام به الفرائض، وقد وفقه الله في ذلك المسعى، ويفتتح مسجد "برلين"، ويتولّى خطبة الافتتاح بنفسه، ثم يستغلّ وجوده بألمانيا، فيتولي التدريس الديني وإقامة الشعائر، دون أن ينسى، في هذه الأثناء، أن يهتمّ بالتكوين الديني والتربوي للأسرى الإفريقيين[8].

**بنية الحكي في الرحلة:**

إنّ الكلام عن "الحكي" في الرحلة هو الكلام عن "الخبر" وطبيعته، ذلك أنّ الخبر - عند أهل اللغة - هو: "القول الذي يصحّ أن ينعت صاحبه بالصدق أو الكذب، بمراعاة وضع المتكلّم أو مقتضى الحال"، فإذا ما خرجنا من حدوده (بحسب مذهب أهل البلاغة، وعلماء المعاني)، وتعاملنا معه تعامل أهل السرد، على أساس أنّه: الحامل لفحوى الحكاية أو القصة، كان الخبر في الرحلة هو: جملة المشاهدات والتسجيلات التي أوردها صاحب الرحلة، أو سردها راويها، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أين يعرض الخبر، اعتمادا على بنية حدثية تتّسق زمنيا ومراحل الحركة الرحلية، سواء أكانت هذه الرحلة واقعيّة، أم متخيّلة.

والمنعم في رحلة "برلين"، لا يلمس ذلك الامتداد الحدثي، أو الاسترسال الحكائي المتناغم مع سردية الرحلة، بما يقتضي دفعا للخبر، وفق تراتبية منطقية، كرونولوجية، كشكل بدائي ساذج في الحكي، أو اعتمال زمن سردي يخضع إلى المفارقات الزمنية المتحقّقة بين زمن الحكي، وزمن السرد، كشكل فنيّ مقصود.

لقد كانت رحلة الخضر حسين أشبه بـ "وقفات" أو "مشاهد"[9] تؤطرها العناوين، ومن ثمّ، فقد ناسب نعت الشيخ الخضر لها "مشاهد برلين"، إذ هو نعت "دقيق" حينما يؤخذ

بمقياس العنونة الواردة في نص الرحلة؛ وأنّ هذه العناوين - على كثرتها - لم تخضع للمسار "السردي"، بقدر ما خضعت للمسار "الرؤيوي"، ذلك أنّنا لا نجد اتّساقا موضوعيّا يؤلفها، أو تسلسلا سرديا يسيّجها، حيث وردت فقر هذه الرحلة تحت عناوين فرعية يشملها العنوان الرئيس: "مشاهد برلين". وإنّ عرضًا للكيفية التي رُتّبت بها عناوين الرحلة، وفق هذا "الثبت العنواني" قد يؤيد ما سنذهب إليه:

| العنوان | ملفوظات مضامين العنوان |
|---|---|
| مرافق الحياة | شوارع برلين/ العمارات والمباني/ حمام المنازل/ طرق التدفئة/ طرق التهوية/ طرق الإنارة/ أجراس المنازل/ التلفون/ دليل التلفون والقائم عليه/ لوازم المطبخ (ميزان الطبخ، قدور الألمنيوم)/ لوازم الغرف (وسائد الريش)/ المنبهات الصوتية في الفنادق. |
| الديانة | المذهب البروتستانتي في ألمانيا/ الشارات الدينية/ قرآن المسلمين وفكرة التوحيد/ الفلاسفة الألمان والدين (الفيلسوف "كنت"، وكتاب "انتقاد العقل الخالص"). |
| الجد والعمل | العمل في حياة الألمان (شعار بسمارك)/ المصانع في ألمانيا/ انعدام التسوّل (تكفل الحكومة بالعجزة) |
| المعاهد العلمية | دور التعليم (وسائل التعليم)/ دار الكتب (نظام المكتبات، نظام الإعارة) |
| نظامات علمية | نظام المدارس/ نظام التعليم (المرأة والتعليم، معاقبة التلميذ، سلوك المتعلّم، التلميذ وصناعة الخطب، أجر المعلم، تعيين المديرين، البعثات العلمية، العائلة القيصرية والمدارس الخاصة) |
| مشروعات خيرية | جمعية البحث عن البائسين/ جمعية تخفيف المصائب |
| ترجمتهم للقرآن | مميزات ترجمة (ركرت)، و(هنينك)/ الترجمة الجزئية للقرآن |
| عنايتهم بالعربية | تعلّم اللسان العربي/ حركة الطبع والترجمة والتأليف (نماذج للمترجمات)/ التعليق على الكتب العربية/ أثر الترجمة في رقي آداب الألمان. |
| عنايتهم باللسان العثماني | ازدهار حركة تعلّم التركية/ دور المستشرقين الألمان في ذلك |

| | |
|---|---|
| أخلاق وآداب | أخلاق الألمان (متانة عزم الألماني، خلق الصبر، خلق الوفاق والمسالمة بين الألمان، الأمن في ألمانيا، رحابة الصدر مع الغريب، دماثة التجار الألمان، خلق الرصانة والتؤدة)/ خطرات شعرية مع الإمام (موازنة بين المعارف والأخلاق)/ بساطة الرجل الريفي/ خواطر حكمية مع الإمام (مناقشة أستاذ ألماني لها) |
| نقودهم | المقادير المعدنية للنقود الألمانية/ المعاملات المالية |
| كلمة في الموسيقى | موقف الألماني من موسيقى الإنجليز الأعداء (موسيقى الشاعر فكنر)/ موقف من شكسبير |
| اللغة، ونبذة من آدابها | أقسام اللغة الجرمانية/ مفردات اللسان الألماني/ الإعراب في الألمانية/ الصيغ الكلامية الألمانية/ حول تعلم الألمانية/ ضمير الجمع في الخطاب (بين الألمانية والعربية)/ البديع في الألمانية/ صناعة الخطابة (مقارنة بين العرب والألمان، الخطباء الألمان)/ ارتجال الشعر. |
| ضبط إداري | وظيفة الشرطة العمرانية (مراقبة المبيعات، مراقبة الغرباء، رخص الإقامة، بطاقات النقل) |
| العقوبة البدنية | العقوبة البدنية وجناية الشرف (مع القصّر)/ عقوبة الإعدام (بالساطور) |
| مسجد الأسرى | مرافق جامع برلين المخصص للأسرى المسلمين/ احتفالية التدشين (خطاب الإمام الخضر بالمناسبة) |
| عنايتهم بأحوال الشرق | عنايتهم بأحوال الشرق زمن الحرب (إدارة الأخبار الشرقية)/ محاضرات المستشرقين الألمان حول الشرق (طريقة المحاضرة)/ الصحف الألمانية الخاصة بعالم الإسلام/ كتب مهداة من الإمام إلى مدير الأخبار الشرقية. |
| خطاب الإمام في تدشين في مسجد برلين | سياسة الحكومة الألمانية الرشيدة القائمة على المبادئ الثلاثة: (الحمية الوطنية، والجمع بين اللين والحزم، ومنح الحرية المطلقة)/ إشادة بتشييد المسجد (بين التسامح الديني في ألمانيا، وسياسة فرنسا في الجزائر) |

فمن خلال هذا "الثبت"[10] ، ندرك هذا الاضطراب في رصف المادة الرحلية، حيث يغيب التداعي الموضوعاتي، وما يقتضيه من استدعاء منطقي لعناصر الخبر، ما تنتفي معه فكرةُ "سرديةِ العرض"، وتستقيم، في الوجه المقابل، فكرة "انتقائية الرؤية"، يعضد هذا الإجراء ذلك "الاعتبار الكميّ" لمادة العناوين المعروضة، حيث إنّ الراوي يسترسل في عناوين دون أخرى للقصدية التي انطلق منها في الرحلة، مثَّالها: عنوان "الأخلاق والآداب" الذي امتدّت مادته إلى سبع صفحات، وعنوان: "مرافق الحياة" الذي امتدّ إلى أربع صفحات، في حين لم يستغرق عنوان: "نقودهم"، وعنوان: "كلمة في الموسيقى" سوى نصف صفحة.

ولئن كانت العناوين تخضع لرؤية واضعها (الرحالة)، الذي يحكمه دافع الرحلة المركزي (التكليف السياسي الصادر عن السلطة العثمانية في اسطنبول)، من خلال مهمّة التحريض (تحريض الجنود الأفارقة على التمرّد، في جبهات القتال، على القادة الفرنسيين، والانضواء تحت راية العثمانيين، وحليفتها ألمانيا)، فلقد تحرّكت حوافز أخرى، قومية، ووطنية، وذاتية، يؤطرها الدافع (الديني) الصابغ لشخصية الرحّالة (الخضر حسين)، بوصفه: أحد علماء الدين، وأنّ السياحة في البلاد الأوروبية لتحمل نكهتها الخاصة، كون فضاء الرحلة بلادا أوروبية، وأنّ إمكانة أن يكون الرحالة حالتئذ "داعية" إلى الإسلام في غير الديار الإسلامية، عاملا على نصرة الدين، ساعيا إلى خدمة مسلمي الغرب (مسلمي ألمانيا تحديدا)، من الأوربيين، واللاجئين المسلمين، والأسرى الأفارقة (وهم مناط التكليف)، غاية سامية تستأهل المجاهدة والجهاد، ولنا في سعى الشيخ الخضر إلى إنشاء "مسجد" في برلين، يؤدي فيه الأسرى الأفارقة المسلمون فرائضهم وشعائرهم الدينية أقرب مثال على ذلك.

ثم ينبري الهدف التعليمي من الرحلة، وهو قناعةٌ حملها الشيخ الخضر في نفسه، مؤمنا فيها أنّ للسفر والسياحة دورا مهمّا في تكوين شخصية الرحالة، بما يجنيه من علوم وفنون ومعارف، وما يستفيده من مشاهدات للبلد الذي يزور، وملاحظات للأمة التي يعايش إذا ما عاد إلى وطنه وبلاده.

ولعل ظروف العرب، والمسلمين عصرئذ، والظروف السياسية التي يشهدها المشرق العربي خاصة، والشرق الإسلامي عامة، من استبداد داخلي، واستعمار خارجي، وتخلف اجتماعي، وانحطاط أخلاقي، قد تكون من بين الأسباب المحفزة إلى إنجاز مقاصد الرحلة، التي تتحدّد في محاولة استكشاف صور التطوّر والتمدّن، ومعاينة مظاهر الرقيّ والتحضّر، التي تعرفها البلاد الأوروبية، قصد الوقوف على أسباب تقدم الغرب وازدهاره، وأسباب تخلف الشرق وانحطاطه.

**الرؤية في الرحلة:**

مصطلح "الرؤية" من مصطلحات النقد "الأنجو- أمريكي"، ينطلق من فكرة ناقدة لـ (الكاتب/ الراوي) المهيمن على عالمه الحكائي، حين يعاب عليه اضطلاعه بدور "محرك الدمى"، ويدعى إلى ضرورة "مسْرَحَةِ" الحدث، لا "سرده"؛ أين القصة تحكى ذاتها، ولا يحكيها مؤلفها[11]، ومن خلال هذا التمييز، في إطار علاقة الراوي بالقصة، تتحقّق "وجهة النظر"، ومن ثمّ "الرؤية السردية" عند المؤلف، وهي - في جوهرها - لا تكاد تحيد عمّا حدّده (تودوروف) في وجهات النظر، من أنّها تتجلّى في تمظهرات ثلاثة: "الرؤية من الخلف"، و"الرؤية مع"، و"الرؤية من الخارج"[12].

ومن المفيد - هنا - أن نقحم عنصرا، نراه من ملازمات أدبية الرحلة، ألا وهو عنصر "العجائبي"، المرتبط بالغريب والخارق، والذي، من خلاله، سنتشوّف إلى رحلة ستغدو مرتعا خصبا لتسريب هذا العالم الفونتاستيكي؛ كون الرحّالة يقْدم على فكرة السفر بنيّة

استكشاف عوالم لم يكن قد رآها من قبل، وأنّ مطمح الرحّالة: أن يخترق مناطق تستأهل أن تكون مادة للتندر والحكي المدهش، خاصة أنّه الرجل الشرقي في العالم الغربي.

فمنذ أن كتبت العرب رحلاتها، وخيالهم يمزج الخرافي بالواقعي، والخارق بالمعتاد، اعتقادا منهم، بل تسليما، أن إدراج الخرافة في أثناء الحكي الواقعي هي ملح الخبر الرحلي، وأنّ الأصل في الرحلة: أن يتصيّد الرحالة الغريب والعجيب والخارق والمذهل، ذلك ما نلمسه في أشهر رحلات العرب (رحلة ابن فضلان)، حينما يروى عادات الترك، وعقائدهم، أو ما يرويه (ابن بطوطة) من أخبار أهل الهند وغرائبهم. بيد أن الكلام عن رحلة الخضر، في ظرفها الزمكاني، قد يبعدها عن أجواء الغرائبية، والعجائبية، فتبرّر عندئذ بالآتي:

- أن الرحلة حديثة زمنيا، ترتبط بعالم أوربي متقدم، تراجع فيه الحسّ الفونتاستيكي (من جهة الرحالة على الأقل).

- أن الرحلة انبثقت عن الشرق المتخلف، فإن كان من انبهار في الرحلة، فإنّما سيقتصر على ما وصله إليه هذا الغرب من مستحدثات علمية باهرة، وإنجازات حضارية لافتة، تعكس عبقرية الإنسان الأوربي، وتطوره العلمي والمادي المذهلين.

- أنّ الرحالّة (الشيخ الخضر)، شخصية دينية متفتّحة، تنبذ الشطط في الخيال، وتتلمّس الواقعية عند العرض، فكيف تكون الحال إذا كان الخوض مع العجيب والغريب، والنادر والخارق.

- أنّ الدافع المباشر إلى الرحلة هو أقرب إلى المهمّة السياسية (الرحلة شبه رحلة سفارية)، التي تقتضي الواقعية، والموضوعية، والمباشرة، بعيدا عن التوهّم والأسطورية التي - عادة - ربّما تلتصق بالرحلات الفردية السياحية التي تأنس إلى اللعبة الخيالية، وحديث الخرافة.

لقد تميّزت الرحلة بوجود راو يروي وقائعها، فيقف أمامها موقف الناقل الأمين، يصفها من الخارج وصفا هو أقرب إلى التسجيل الخالص، بحيث لا يقول إلا ما يرى، ولا يسجّل إلاّ ما تلتقطه المشاهدة. يقول الشيخ عن "مرافق الحياة" في برلين:

"يتوسط الشوارع الكبيرة في «برلين» رياض تسايرها طولاً، وتفتح فيها سبلاً للراجلين خاصة، فيكون الشارع مفصلاً إلى رصيفين وجادتين، بينهما ممر يكتنفه عمارتان من نبات تطرزه الرياحين بألوان مختلفة، ولا يشاهد الإنسان في ديارها- ولو في الرياض- بناء بالياً، أو جداراً متداعياً، والذي ساعد على تنسيق مبانيها ومتانتها: أن عناصر الطين بمقربة من تلك المدينة، وأن الحجارة والخشب يجلبان إليها على نهر «شبري» بسهولة، وقيم زهيدة"[13].

وقد تكون الرؤية أقرب إلى الرؤية المصاحبة (الرؤية مع)، إذا أخذنا بحكم أنّ (السارد/الراوي) مع (الشخصية/ الراوي) يمثلان الصوت الواحد، إذ كلاهما شخصية بالنسبة إلى المتلقي (قارئ الرحلة) داخل النص، وإن بدا لنا أن الشخصية تعرف أكثر من الراوي، كحال الأستاذ الذي يقصّ على الراوي بعض مظاهر التكفّل الاجتماعي، و"المشروعات الخيرية" عند الألمان:

"من مساعيهم النافعة: أن ألّفوا جمعية تبحث عن البائسين من طرق خفية، وتوجّه إليهم في البريد صدقات من غير أن يشعروا بمصدرها. وقصَّ عليَّ بعض أساتيذهم: أن إحدى البائسات كانت ترتزق بصنعة الخياطة، فوافاها ذات يوم صاحب البريد بـ (500) مارك، وناولها إياها، فدهشت فرحاً، واندفعت تسأل عن باعثها بإلحاح، فأبى أن يكشف لها عن الحقيقة"[14].

## صيغ عرض المادة الرحلية:

لما كانت "الرؤية" في النص تعتمد على "الصوت" الذي يقدمها، وطريقة عرض هذا الصوت للمشاهدات، تجلّت أهمية "صيغ" العرض للمادة الرحلية وفق المنطق الخاص الذي يحكم السارد، والخلفية الإيديولوجية التي تنطلق منها الرحلة.

والذي يتفحّص "مشاهدات برلين"، يدرك أنّ السارد اعتمد أسلوبين موضوعيين منطقيين في نقل المشاهدات: أسلوب الاستدلال بالمقارنة، وأسلوب الاستدلال بالاستشهاد.

### أولا: أسلوب الاستدلال بالمقارنة

يتمّ ذلك بأن يعرض الرحالة المعلومة المراد إيصالها، ويقابلها بمعلومة من عنده من باب المقارنة كحال كلامه عن صناعة الخطابة عند الألمان، وكيف يقابلها بالخطابة عند العرب:

"أما صناعة الخطابة، فإني كنت شهدت محاضرات وخطباً كان أصحابها ينظرون عند إلقائها إلى أوراق نصب أعينهم، فوقع في خاطري أن هذه الصناعة لم تبلغ عندهم أشدها، ولكني حضرت مسامرة موضوعها: «الإسلام في عالم الحرب»، فقام بعد المسامر ثلاثة خطباء من غير أوراق، وألقوا خطباً مسهبة بترسل في القول وتؤدة، ولا يشير الخطباء بأيديهم كثيراً حال الخطبة، بل سمعت منهم من ينكر ذلك الصنيع، ولاسيما حركة لا يكون وضعها مناسباً للمعنى الذي يقترن بها، وهذا ما كان العرب ينقدونه على خطبائهم أيضاً، قال الحجاج لأعرابي: أخطيب أنا؟ قال: نعم، لولا أنك تشير باليد، وتقول: أما بعد"[15].

ولربما كانت صورة المقارنة عند الشيخ الخضر أشدّ قوة وذكاء حين يخضعها إلى منطق الاستدلال الموجب والسالب عند المقارنة. فانظر كيف يمرّر خطابه الحضاري في معرض المقابلة بين حاضر الغرب وماضي العرب، عند تكلّمه عن مرافق الحياة في المدن الغربية:

"ومن المنازل ما يتوسل لدفئه أيام البرد بإيقاد الفحم في القصبات القائمة بزاوية من زوايا المنزل على الطريقة المعروفة، ومنها ما يدفأ بوسيلة ماءٍ حار يمر في بعض نواحيه على أسلوب منتظم. وملخص ترتيبه: أن ينصب في الطبقة السفلى مرجل توقد تحته النار بتناسب، ويتصل بالمرجل قصبة يصعد فيها الماء إلى إناء فتح عند سقف الطبقة العليا، ثم ينسكب نازلاً إلى مواضع التسخين في سائر الطبقات وحجراتها، حتى يعود إلى المرجل مرة أخرى، ويتركب موقع التسخين- في الغالب- من خمس عشرة إلى عشرين أسطوانة خشبية متلاصقة، وحيث يجري الماء في مجال مستدير وسطح غير ضيق يحصل الدفء الكافي"[16]

ثم يقابلها بمعلومة من عنده، استمدها من حضارة العرب:

"وذكرت عند هذا الصنيع: أن جبرئيل بن بختيشوع المتوفى سنة 356 هـ، كان يضع من وراء الحجرة التي يجلس فيها مواقد تبعث من وهجها ما يكسر سورة البرد. دخل عليه أحد الفضلاء - على ما قصّه موفق الدين في «طبقات الأطباء» -، فأحس بدفء، وقد أصبح البرد شديداً، فكشف له بختيشوع عن جوانب المقعد، فإذا موضع له شبابيك خشب بعد شبابيك من حديد وكوانين فيها فحم الغضى، وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالزقاق، مثلما يصنع الحدّادون"[17].

ولعل هذه الإشارة من الشيخ الخضر، تحمل بعدا تحسيسيا للغرب، مؤداه: أنّ العرب قد بلغوا من الرفاهية الحضارية في عصورهم الزاهية ما بلغها الغرب اليوم، كما حملت بعدا تحسيسيا للعرب، بالإشارة إلى هذا التقدم المادي في ألمانيا الذي يتنعم به الغرب ويفتقده العالم العربي الإسلامي.

وفي المقابل، نجد الشيخ يعرض المعلومة بدقة، حيث يسوقها من باب المقارنة السالبة، كالذي سلكه، عندما كان يشيد بما فعلته ألمانيا مع المسلمين، حين شيّدت لهم المساجد، يقابلها ما سلكته فرنسا في الجزائر عندما انتهكت حرمات مساجد المسلمين.

"ورغم أن الحكومة الألمانية لم تصرف وقتاً طويلاً في بناء هذا المسجد، فإنّ ألسنة خطبائنا، وأقلام كتابنا ستلهج بشكرها، والتغني بمجدها، طالما ظلت الأرض تدور. ومن جهة أخرى، فإذا كان إخواننا الجزائريون يذكرون أن فرنسا استولت على جامع "الباي صالح" بقسنطينة، وعلى "الجامع الكبير" في عنابة، واتخذت منهما ثكنتين لعساكرهما، فإنهم سيفهمون الفارق بين حكومة تشيّد لهم، في عقرها، مسجداً جميلاً، وبين أخرى، همّها القضاء على الإسلام وبيوت العبادة فيه"[18]

**ثانيا: أسلوب الاستدلال بالاستشهاد:**

وهو أسلوب حكيم نهجه الشيخ الخضر حسين، من باب تقريب المعلومات، واعتماد أسلوب التمثيل الواقعي لها، حيث يأتي بالخبر أو المعلومة ويشفعها بالحجة المادية، والشاهد الحي عليها، مما يسهم في تقبّلها وتصديقها في جهة المتلقي العربي.

ومن أمثلة هذا الأسلوب الاستشهادي: حينما يقدم الشيخ دليلا على أخلاق الأمة الألمانية مع غير الألمان، أين تتجلى رحابة صدر الألماني:

"يمنحون الغريب في بلادهم صدراً رحباً، فيقف الرجل إذا استوضحته أمراً، أو استخبرته عن مكان، ولا يتسلل عنك إلا أن تستوفي منه بياناً كافياً، وربما تفرس منك الحيرة في الطريق، فيفاتحك بالسؤال عن الوجهة التي تريدها، ويهديك إليها بالقول المفصل، أو بالمرافقة إذا لم تكن المسافة بعيدة"[19]

ثم يشفعها بدليل يشهد صحة ما يقول، وهو دليل واقعي:

"اشتبه عليَّ الطريق إلى محطة القطار في بعض الأيام، فاستكشفت عنها أحد المارين في السبيل، فأخذ يصفها بالإشارة والأمارة، ولما لم يقنع بأن عبارته وقعت مني موقع الفهم البيّن، قفل راجعاً يسايرني بمقدار عشرين دقيقة، حتى بلغت المحطة نفسها"[20]

ولتأكيد هذه الخلّة في الشعب الألماني، وهي استشهاد موجب، يسوق الشيخ الخضر موقفا أخلاقيا آخر لهم، ثم يقابله بدليل واقعي مناقض له، كان قد صدر عن بعض الأوربيين البلقان، ليستدلّ على التفاوت الأخلاقي، والقيمي بين الأمتين:

"يغلب عليهم [الألمان] خلق الرصانة والتؤدة، ولاسيما في المشاهد العامة والنوادي الجامعة. امتطيت ذات يوم قطار المدينة، فاتفق أن كان أمامي رجل أظهر في مغازلته لامرأة طيشاً وسفهاً، فوقع في خاطري أنه أجنبي عن هذه الحاضرة، ثم إنه جاذبني عند انصرافي محادثة عرفني بها أنه من أحد الشعوب البلقانية"[21].

إنّ استشهاد الشيخ الخضر بسلوك هذا الرجل البلقاني، في القطار، وهو استشهاد خطير، له دلالته لا محالة، ذلك أن الشعوب البلقانية قد اجتمع فيها المسيحي والمسلم، ومن هنا يكون هذا الشاهد دليلا على موضوعية الشيخ، حين عمّم الظاهرة السلوكية المعروضة، على المسلمين، وغير المسلمين؛ بحكم أنّه، هو نفسه، يمثّل في رحلته، الدولة التركية (البلقانية)، مرّة، حين اضطلع بمهمته السياسية والوطنية (تحريض المسلمين على التمرّد على القادة الفرنسيين في حربهم لألمانيا وتركيا، ومرّة، حين يمثل من جهة أخرى، الدولة التونسية (العربية)، وهو منها بالانتماء الجغرافي، إلى جانب كون هذا الشاهد شاهدا زئبقيا مرنا ذا حدين، تموقع في النص تموقعا دقيقا، حيث يحقق معادلة "الأنا" الشرقي، و"الآخر" الغربي، ".. وحيث رؤية الذات صافية عبر المقارنات المتعدّدة، والقاسية أحيانا، فيصبح اكتشاف الآخر، هو في نفس الآن، اكتشافا للذات"[22]، بحسب تشكيلات هذا الآخر

الموجب (صاحب الرسالة الحضارية، والمقاصد الإنسانية، والقيم الخيّرة..)، والآخر السالب (الحامل لفكرة الاستعمار والمتسلط، والمستبد، والهيمنة..).

الهوامش:

* ولد الإمام محمد خَضِرْ حسين - رحمه الله تعالى - في مدينة (نَفْطة)؛ من أعمال الجريد التونسي- في 26 رجب سنة 1293هـ /16 أغسطس 1876م. من أسرة عرفت بالتصوّف تمتد أصولها إلى (طولقة) الجزائرية. هاجرت عائلته إلى جنوب تونس بعد فشل المقاومة ضد فرنسا، وتلقى تعليمه الأول في زاوية والده، ثم التحق بجامع الزيتونة، يدرس على أبرز شيوخه إلى أن نال شهادة التطوّع التي تخوّل لصاحبها منصب التدريس والقضاء في المحاكم الشرعية،
كانت له رحلات عديدة إلى الجزائر ومصر- والشام واسطنبول وألمانيا، انتهت باستقراره بمصر-، فاستوطن القاهرة حيث أعانه الاستقرار على الإنتاج العلمي المنتظم، والنشاط الإصلاحي الدائم، ثمّ تجنّس بالجنسية المصرية، غير أنّ التجنس بالمصرية، والانخراط في هيئة كبار العلماء الأزهريين، والاشتغال بالبحث والتحقيق، لم يكن ليعوق الشيخ (الخضر) عن النهوض بمسؤولياته وواجباته كعالم مسلم ومجاهد عربي، ورعاية حقوق وطنه الأصلي (الجزائر) وموطن مولده (تونس)، وتأسيس الجمعيات وتفعيلها في خدمة قضية التحرر.
وعندما قامت الثورة المصرية عام 1952م، كان منصب شيخ الأزهر شاغراً، فوقع الاختيار على الشيخ (الخضر-) شيخا للأزهر، وإماماً أكبر، وشيخاً للإسلام، ووجها مشرقاً لهذه الجامعة العريقة. فنهض بالأمانة ما وسعته طاقته.. ولما أحس بضغوط تطلب منه تنفيذ ما لا يرضى، صمم على الاستقالة سنة 1954م. ومنذ ذلك التاريخ تفرغ للبحث و الكتابة والمحاضرة، حتى وفاه الأجل في 3 فبراير 1958م، ودفن بمقبرة (آل تيمور)، بناء على وصيته، بجانب صديق دربه العلامة (أحمد تيمور باشا).

خلّف فضيلة الإمام محمد الخضر حسين للمكتبة العربية والإسلامية تراثاً دينياً وفكرياً وعلميا وأدبياً زاخرا، شهد على عقله المبدع، وفكره الراسخ المجدد. ومن مؤلفاته: رسائل الإصلاح، القياس في اللغة العربية، الخيال في الشعر العربي، الحرية في الإسلام، بلاغة القرآن، الرحالات، نقض كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق، وغيرها كثير، إلى جانب ديوانه: خواطر الحياة.

[1]- رفاعة رافع الطهطاوي: صاحب كتاب: "تخليص الإبريز، في تلخيص باريز"، أحمد فارس الشدياق: صاحب رحلة: "رحلة إلى مالطة وأوربا"، خير الدين التونسي: صاحب رحلة: "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك".

[2]- مجموعة من المؤلفين: الرحالة العرب والمسلمون (اكتشاف الآخر)، أعمال ندوة نظمتها وزارة الثقافة بالتعاون مع المشـــوع الجغرافي العربي (ارتياد الآفاق)، أبو ظبي [14-17 نوفمبر 2003]، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط.1، 2003، ص: 345.

[3] - الخضر حسين: أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية، موسوعة الأعمال الكاملة، 11/ 5428.

[4]- المصدر نفسه: 11/ 5428- 5442

[5] - نشرت بمجلة "المقتبس"، الدمشقية، في الجزأين: السابع والثامن من المجلد التاسع، سنة: 1332هـ - 1913م

[6] - كانت مشـاهد برلين مذكراته عن تلك الحقبة، وهي مختصرة، ولم يعثر المحقّق (على الرضا الحسني، ابن أخ الشيخ)، على المذكرات الكاملة.

[7]- الخضر حسين: أثر الرحلة في الحياة العلمية والأدبية، موسوعة الأعمال الكاملة، 11/ 5569.

[8]- المصدر نفسه: 11/ 5570.

[9]- لا يؤخذ من ملفوظي: (وقفة، ومشهد) تلك الدلالة السردية للزمن، وصور تعطيله أو إبطائه عند "السرديين"، حيث يفهم "**المشهد**" على أنّه: "ذلك المقطع (**الحواري**) المبثوث ضمن السرد، أين تتولى الشخصية بنفسها دفعه وتطويره، بينما يكون السارد خارج النص"، أو يفهم من

"**الوقفة**" على أنّها: "ذلك المقطع (**التقريري**) الذي يتدخل به السارد في النص، معلقا أو معقّبا أو مستدركا"

[10]- ربما يستثمر هذا الجدول، في تقديم ملخص دقيق لرحلة "برلين"، باعتماد ملفوظات تيمات العناوين.

[11]- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن ، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط. 4، 2005، ص: 285.

[12] - **الرؤية من الخلف**: ورمز إليه تودوروف بمعادلة: الراوي أكبر من الشخصية حيث يكون السارد/ الراوي أكثر معرفة من الشخصية. ولعلّ الشكل الصيغي المهيمن هو: ضمير الغائب المناسب للحكاية والعرض.

**الرؤية مع**: حيث الراوي مساو للشخصية ، فلا يعرف إلا ما تعرفه هذه الشخصية، ولا يقول إلاّ ما توصّلت إليه، والشكل الصيغي المهيمن هنا هو: ضمير المتكلم، أين تقوم الشخصية بسرد الأحداث بنفسها، مثل ما هو الحال في السيرة الذاتية، أو أدب الرحلات.

**الرؤية من الخارج**: حيث الراوي أقل معرفة من الشخصية، فلا يعرف ولا يقول إلاّ ما تعرفه الشخصية أو تقوله، وهو يصف ما يراه أو يسمعه، ولا يعرف ما يدور في ذهن الشخصية، أو ما تشعر به، وهذا النمط من الرؤية مناسب للرواية الشيئية التي تصف الأشياء المادية، أو تتوقف عند المظاهر المادية الحسية دون أن تقدم توضيحا أو تفسيرا أو موقفا.

[13]- موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين: جمع وضبط: علي الرضا الحسيني، دار النوادر، بيروت، ط.1، 2010: 11/ 160.

[14] - الموسوعة: 11/ 169

[15] - الموسوعة: 11/ 171

[16] - الموسوعة: 11/ 162.

[17] - الموسوعة: 11/ 162، 163.

[18] - الموسوعة: 11/ 176، 187.

[19] - الموسوعة: 11/ 173.

[20] - الموسوعة: 11/ 173.

[21]- الموسوعة: 11/ 174.

[22]- شـــعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي (التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل)، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط.1، 2006، صص: 327، 328.